الفصل الثالث

الاتجاه العقائدى ــ الدفاعى

الفكر ــ التحديد

فى هذا الاتجاه الثالث فى منهج العقاد الفكرى فى أدبه الإسلامى نتناول دفاع العقاد عن الإسلام أمام المهاجمين والطاعنين ودعاة الإلحاد والمادية ونحوهم . ففى دراسة العقاد وتقييمه للعقيدة الإسلامية فى الفصل السابق لمحنا موقفه الدفاعى أحيانا ، بمعنى أنه لم يقتصر على مجرد التقييم ، وإنما نلمح من ثنايا هذا التقييم نوعا من الرد العنيف على فئة تهاجم الدين من جوانب معينة وهذا الهجوم أساسا جعل العقاد يدرس هذه الجوانب ويفسرها ويضعها موضعها الصحيح ، فاقترن التقييم هنا بالدفاع . فقد هىء لهؤلاء المهاجمين أنهم يضربون الإسلام فى نقاط يعجز أصحابه أن يردوها ، ولا يوجد بينهم من يستطيع أن يرد بالحجة وقوة الدليل والبرهان ، ولكن العقاد استطاع ذلك من خلال دراسته للعقيدة ، فقد جمع كل ما يقال عن الإسلام ، واستطاع تحديد نقاط الهجوم ، ثم تناولها واحدة وراء الأخرى بالتفنيد والرد . وقد رأينا فى الفصل السابق بعضا من هذه النقاط ، وفى هذا الفصل يتناول العقاد العقيدة من موقف دفاعى .. أى أننا ما زلنا فى دراسة العقيدة ، وما زلنا فى هذا الاتجاه الذى يتناولها بالبحث ، ولكن هذا التناول يوجه لتحقيق هدف محدد وهو الدفاع عن الإسلام أساسا ، وبالتالى نتبين فى هذا الفصل كيف يستطيع الفكر العقادى « تحديد » نقاط الهجوم ونقاط الضعف فى هذا الهجوم ، ثم تحديد أساس الرد والدفاع بالحجة وتكوينها بناء على القراءة والتقصى والمقارنة .. ثم طريقة الرد المؤيدة بالحجة والدليل والإقناع ــ كما عهدناه ــ وبالتالى فنحن أمام نموذج من تناول الفكر العقادى للعقيدة ضمن منهجه العام .

١ ــ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

الكتاب الأول فى هذا الاتجاه يبدو من عنوانه يتناول البحث فى موضوعين :

الأول إظهار قيمة العقيدة فى صورة « حقائق » . الثانى وضع ما قيل ضد الاسلام فى صورة « أباطيل » يجب الرد عليها وتفنيدها ، وبالتالى ينبع اتجاه الكتاب المنهجى من الاتجاه العقائدى الدفاعى أساسا ، ولو نظرنا إلى المنهج التقسيمى للكتاب لوجدنا الاتجاهات الآتية :

أولا :

فاتحة ناقش العقاد فيها قضيتين تمسان الدين والعقيدة وهما شبهة الشر وشبهة الخرافة .

ثانيا :

الاتجاه العقائدى الفكرى فى الإسلام ، تناول فيه فكرة العقيدة الإلهية ، فالنبوة ، فالإنسان ، فالشيطان ، ثم العبادات ، أو كما يقول عنها « فرع من العقيدة يشاهد عيانا فى حيز التنفيذ أو التطبيق .. »(١) .

ثالثا :

اتجاه العلاقة الحضارية فى الإسلام ، وسماه العقاد « المعاملات » ، وتناول فيه قيمة المعاملة وأهميتها بين البشر بعضهم وبعض فى الإسلام الذى جعل العلاقة بين الإنسان والإنسان فى أسمى مكانة .

رابعا :

الاتجاه الاجتماعى التنظيمى ، وسماه الحقوق ، وتناول فيه الحرية الإسلامية والأمة والأسرة ، وزواج النبى ﷺ وغير ذلك .

خامسا :

الاتجاه السلوكى الأخلاق فى الإسلام ، وسماه الأخلاق والآداب

ولو بدأنا بالفاتحة لوجدنا العقاد يعرض قضيتين هامتين يقابلان العقيدة فى نفوس الباحثين من المتشككين والمنكرين ، وهى شبهة الشر ، بمعنى كيف

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٠٨

يوجد إله قدير كامل الصفات ومع ذلك يوجد الشر فى العالم ؟ وشبهة الخرافة بمعنى كيف يمكن للمعتقد أن يوفق بين العقيدة وبين المحسوسات — كما يقول العقاد — « والمعقولات التى تتكشف عنها معارف البشر كلما تقدموا فى معارج الرقى والإدراك .. »[1] ؟

وهنا وضع العقاد أساسين للمنهج الدفاعى ، لأن حولهما يدور الشك فى الدين وبالتالى مهاجمته . وقد بين أن « التكافل بين أجزاء الوجود » هو رد على الشبهة الأولى فيقول : « وخلاصة الحل الذى نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود أن المعتقدين به يرون أن الشر لا يناقض الخير فى جوهره ، ولكنه جزء متمم له ، أو شرط لازم لتحقيقه ، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيض يقابلها ويرجح عليها .. »[2] . وفى الرد على الشبهة الثانية بين العقاد أصالة العقيدة من ناحية ، وشمولها لمطالب الروح وارتقاء عقائدها وشعائرها فى آفاق العقل و الضمير من ناحية أخرى[3] . ويقول : « وكذلك كانت الديانة الإسلامية — كما آمنا بها — ملة لا تفضلها ملة فى شمول حقائقها وخلوص عباداتها من شوائب الملل الغابرة .. »[4] ونجد أن العقاد يهتم — كما رأينا فى كتب سابقة له — بالربط بين الفكر والعقيدة أو بين العقل والإيمان .. وجعل ذلك هدفا من أهداف كتابه هذا أيضا . كما رأينا أن الأساسين اللذين وضعهما العقاد للمنهج الدفاعى يقومان بالدرجة الأولى على فلسفة العقيدة ، ويناقشهما العقاد مناقشة عقلية فلسفية إقناعية كدأبه . ويقول بعد النص السابق مباشرة : « وذلك هو موضوع هذا الكتاب فيما يعرضه من حقائق الإسلام ، وفيما يعرض له من أباطيل المفترين عليه ... » ، ويقول : « إنما هو شمول العقيدة الإسلامية دون غيره هو العامل القوى الذى يجمح إليه النفوس ، ويحفظ لها قوة الإيمان ، ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة كلما

(١) المصدر نفسه ٦
(٢) المصدر نفسه ٨
(٣) المصدر نفسه ١٨
(٤) المصدر نفسه ١٨

تفتحت أبوابها أمام المدعوين إليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين .. »[1] .

ثم نجد العقاد يتناول فى آخر « الفاتحة » ما يختص بمنهجه الفكرى من حيث :

١ ـــ الإشارة إلى مقصده أو هدفه الأساسى من الكتاب مما أوضحه ، فقال : « فى هذه العجالة عن شمول العقيدة الإسلامية إلمامه كافية لمقصدنا فى هذا الكتاب .. »[2] .

٢ ـــ وسيلته المنهجية إلى تحقيق ذلك بأنه يود أن « يستقصى عن حقائق الدين فى حيز هذه الصفحات .. »[3] .

٣ ـــ بيان « المزايا » التى على أساسها أقام منهجه التقسيمى ، فقال : « أما المزايا التى امتازت بها عقائد الإسلام وأحكامه ، فنحن مفردون لها مايلى من فصول الكتاب الأربعة ، وهى مبدوءة بفصل عن العقائد ، ويليه فصل عن الحقوق . وفصل عن المعاملات ، وفصل عن الأخلاق والآداب .. »[4] . وعلى هذا الأساس قسم العقاد كتابه إلى فصول .

٤ ـــ بيان الأهداف العامة أو الوجهة التى أرادها ، فيقول : « ووجهتنا التى نتجه إليها فى هذه البحوث » :

أولا :

أن الإسلام يوحى إلى المسلم عقيدة فى الذات الإلهية ، وعقيدة فى الهداية النبوية ، وعقيدة فى الإنسان ، لا تعلوها عقيدة فى الديانات ولا فى الحكمة النظرية أو الحكمة العملية .

---

(١) المصدر نفسه ١٩

(٢) المصدر نفسه ٢٨

(٣) المصدر نفسه ٢٨

(٤) المصدر نفسه ٢٨

ثانيا :

أن أحكام الإسلام لا تعوق المسلم عن غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة .

ثالثا :

أن فى الإسلام زادا للأمم الإنسانية فى طريق المستقبل الطويل ، يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الأزواد من وطاب العقائد الروحية أو تكاد . وباسم الله نتجه فى وجهتنا ، وعلى هدى من الإيمان بالله .. »(١) .

وعلى هذا الأساس نجد أن تلك الأهداف العامة تظهر : قيمة العقيدة وحرية العقيدة وديمومة العقيدة وتتجمع فيها جميعا عناصر الدفاع عن الإسلام . وفى الكتاب نجد العقاد يستخدم المنهج الرأسى التطورى بجانب المنهج الأفقى أحيانا وذلك حسب طبيعة هذه الاتجاهات ونحوها .

فى الفصل الأول بعنوان العقائد ، بين العقاد فى **العقائد ــ ١** العقيدة الإلهية وتطورها وبحثها عند اليونان وفلاسفتهم ، ومقارنة ذلك بتصور الذات الإلهية فى الإسلام قائلا : « ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الإلهية التى جاء بها الإسلام أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات ..(٢) ، ثم تناول عقائد أخرى ، ثم نجد الاتجاه الدفاعى فى بيان العلاقة بين الإسلام وما سبقه من العقائد المسيحية ، ففى رده على المستشرقين والباحثين فى هذه النقطة قال : « لا يجوز لأحد من هؤلاء الباحثين أن يزعم أن الإسلام نسخة محرفة من المسيحية إلا إذا اعتقد أن بنى الإسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها فى بيئته الغربية ، وفيما اتصل به من البيئات الأخرى حول جزيرة العرب . ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فى سائر البيئات ومختلف العصور . فالعقيدة المسيحية التى يجوز لصاحب المقارنة بين الأديان أن يجعلها قدوة للإسلام إنما هى عقيدة المسيحيين فى الجزيرة العربية وما

(١) المصدر نفسه ٢٨ ــ ٢٩

(٢) المصدر نفسه ٣٩

حولها .. »[1] . ويقول بعد إيراد نص لأحد الباحثين الغربيين : « كانت عقائد الفرق المسيحية فى جزيرة العرب ، وفى العالم المترامى حول جزيرة العرب على هذا النحو الذى وصفه رجل متعصب على الإسلام ، لا يهتم بمحاباته ، ولا يظن به أنه يتحانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها . ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو لم يكن مما يغرى بالإعجاب ، أو مما يدعو للاقتدار . ومن الواضح البين أن موقف الإسلام كان موقف المصحح المتمم ، ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية .. »[2] .

وفى العقائد ــ ٢ تناول العقاد مبحث النبوة ، فيقول : « نمت فى الإسلام فكرة النبوة ، كما نمت فيها الفكرة الإلهية ، فبرئت هذه الرسالة السماوية من شوائبها الغليظة التى لصقت بها فى عقائد الأقدمين من أتباع الديانات الوثنية والديانات الكتابية . وخلصت من بقايا السحر والكهانة كما خلصت من شعوذة الإيهام الخيالى وبدوات الجنون .. »[3] ، وبعد الاتجاه التطورى فى بحث تطور النبوة فى الأديان والعقائد السابقة للإسلام نجد الاتجاه الدفاعى فى قوله : « فأما من يقول أن النداء باسم رب العالمين نسخة محرفة من النداء برب القبيلة بين شركائه من أرباب القبائل ــ فإنما هو خطأ حقيقة أن يسمى عجزا فى الحس ، لأنه أظهر للحس من أن يحتاج إلى إطالة بحث أو تعمق فى تفكير .. »[4] .

فى العقائد ــ ٣ تناول العقاد قيمة الإنسان فى الإسلام قائلا : « وأما تعريف الإنسان بما وصف به القرآن الكريم ، وأحاديث النبى عليه السلام ، فقد اجتمع جملة واحدة فى تعريفين جامعين : الإنسان مخلوق مكلف ، والإنسان مخلوق على صورة الخالق .. »[5] .

وفى الاتجاه الدفاعى يتناول العقاد هنا نقطة هامة سبق أن أثارها فى أكثر من بحث وهى العلاقة بين النص القرآنى أو العقيدة وبين التطورات العلمية

(١) المصدر نفسه ٤٩ ــ ٥٠
(٢) المصدر نفسه ٥١
(٣) المصدر نفسه ٥٨
(٤) المصدر نفسه ٧٣
(٥) المصدر نفسه ٧٧

والمكتشفات الحديثة، وقد أشار فى هذه الأبحاث إلى أن العلاقة بين الطرفين ليست علاقة نص أو مقرون بنظرية ، وإنما علاقة فكر متطور يحث على النظر والتأمل بما هو متطور ويحتاج إلى نظر وتأمل ، يقول : « نحن لا نحب أن نقحم الكتاب فى تفسير المذاهب العلمية والنظريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل ، أو ظهرت منها نظرية يقول بها أناس ويرفضها آخرون ، ومهما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة إلى العلم ، فهو ثبوت إلى حين ، لا يلبث أن يتطرق إليه الشك ، ويتحيفه التعديل والتصحيح ، وقريبا رأينا من فضائلنا من يفسر السموات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر ، وأن الصغار منها تعد بالمئات ولا يحصرها الإحصاء ، فليس من الصواب إذن أن نقحم أصول العقيدة فى تفسير أقوال وآراء ليست من الأصول فى علومها ، ولا يصح أن تتوقف عليها الأصول ، وحسب الدين من سلامة المعتقد ، وموافقته للعقل ، أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث فى العلم وقبول الرأى الذى تأتى به فتوح الكشف والاستنباط .. »[1] .

فى العقائد ــ ٤ تناول العقاد موضوع الشيطان مشيرا إلى ما قاله فى كتابه « إبليس » عارضا لتطور الشيطان فى العقائد والأديان قبل الإسلام ، ثم قال فى الاتجاه الدفاعى : « بهذه العقيدة الوجدانية الفكرية أقام الإسلام عرش الضمير ، وثل عرش الشيطان . ومن حق البحث الأمين على الباحث المنصف أن يضيفها إلى عقائد الإسلام فى الله وفى النبى ، وفى الإنسان . فإذا عرف الإنصاف ، فما هو بقادر على أن يزعم أن الإسلام ديانة محرفة من ديانة سبقت . وإذا عرف الصواب ، فما هو بقادر على أن يجحد مرتقاه فى أطوار الإيمان ، وأنه غاية ما ارتفع إليه ضمير المؤمن فى ديانات الأقدمين والمحدثين .. »[2] .

فى العقائد ــ٥ تناول العقاد العبادات وخلص إلى أنها تقوم على العلاقة بين الأوامر والنواهى وبين الأهداف والغايات منها ، يقول : « وعلى هذه الوتيرة

(١) المصدر نفسه ٩١

(٢) المصدر نفسه ١٠٥

وما شابهها فى الفرائض الإسلامية يتاح للمسلم أن يوفق بين عباداته التوفيقية ، وبين أدائها للغرض من العبادة ، وهو تذكيره بوجوده الروحى ، وتذكيره بوجود أسمى من وجوده وأبقى .. »[1] وتطرق من هنا إلى مبحث هام وهو الضمير قائلا : « على أن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها فى أرفعها وأرقاها بالنظر إلى حقيقتها ، أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها ، وتلك مزيته البينة التى يرعى بها استقلال الفرد فى مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها فى نظام حياة . فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده ، لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة .. »[2] .

انتقل العقاد بعد ذلك إلى الفصل الثانى بعنوان « المعاملات » ، قائلا فى الاتجاه الدفاعى : « من العلماء المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من يسلم لعقائد الدين سموها ، ونزاهتها ، ولكنه مع ذلك يعيب الدين نفسه بشرائعه وأحكام معاملاته ، أما لأنه يرى أن الأديان ينبغى أن تكون مقصورة على العقائد والوصايا ، ولا تتعرض للتشريع وأحكام المعاملة التى تصطدم بالحوادث العملية ، وتجرى مع تقلبات الأحوال فى البيئات المختلفة ، والأزمنة المتعاقبة على سنن شتى ، ولا تخضع للنص الواحد فى جميع أطوارها وملابساتها . هذا ، أو لأنه يعيب المعاملات لذاتها ، ويرى فيها نقصا يتجافى بها عن مبادىء العدل وأصول الآداب المرعية بين أمم الحضارة . وقد تعمدنا من أجل هذا أن نتبع الكلام على العقائد الإسلامية بالكلام على المعاملات الإسلامية ، وتحرينا فى الكلام على هذه المعاملات أن نقصرها على أبواب المعاملة التى وردت فيها أشد الشبهات على الشريعة الإسلامية فى العصر الحاضر من جانب علماء المقارنة بين الأديان ، أو من جانب المبشرين العاملين على تحويل المسلمين فى بلادهم عن عقائدهم وأحكام دينهم .. »[3] .

---

(١) المصدر نفسه ١١٢

(٢) المصدر نفسه ١١٢

(٣) المصدر نفسه ١١٦

من هذا المنطلق شرع العقاد فى تناول موقف الشرع الإسلامى فى الأمور التى تختص بالمعاملة كالربا والتجارة والحدود ونحوها .

فى الفصل الثالث تناول العقاد « الحقوق » فبين الحرية الإسلامية وما يتبع ذلك من الديمقراطية فى الحكم والسياسة ، ثم الأمة وحقوقها المستمدة من الحق الإلهى ، ثم الأسرة وكيانها فى الإسلام ، وعلاقة ذلك بحقوق الرجل والمرأة ، ثم تناول موضوع تعدد الزوجات والعقوبات ، ثم انتقل إلى موضوع هام طالما سدد أعداء الإسلام عن طريقه سهامهم وضرباتهم إليه ، وهو موضوع زواج النبى ﷺ ، فقال تحت هذا العنوان : « يندر أن يطرق خصوم الإسلام موضوع الزواج دون أن يعرجوا منه إلى زواج النبى ، ويتذرعوا به إلى القدح فى شخصه الكريم ، والتشكيك من ثم فى دعوته المباركة ودينه القويم . وللإسلام خصوم محترفون ، وخصوم ينكرونه على قدر جهلهم به و بسيرة نبيه عليه السلام .. »[1] . ثم شرع العقاد — فى اتجاهه الدفاعى — فى بيان هؤلاء الخصوم ودعاواهم والرد عليها بالحجج المقنعة .

تناول بعد ذلك العقاد موضوع « الطبقة » مبينا طبقات المجتمع الإسلامى وعلاقة ذلك بالفوارق الطبيعية بين الناس بعضهم وبعض ، ثم تناول الزكاة . ثم انتقل إلى موضوع « الرق » فى حقوق الحرب وأشار إلى موضوع طالما طرقه أعداء الإسلام وهو انتشار الإسلام بالسيف ، ثم انتقل إلى « حق الإمام » ، وعرف الإمام بأنه « وكيل الأمة فى إقامة حدود الله .. »[2] وأتبع ذلك بالاجتهاد والعقوبات العامة ، وقال فى الاتجاه الدفاعى مبينا الأخطاء التى وقع فيها مهاجمو الإسلام : « والعبرة فى معظم هذه الأخطاء التى يقع فيها نقاد الشريعة الإسلامية من ساسة الغرب ، أنهم يرغبون فى توجيهها ، ولا يكلفون أنفسهم أن يترددوا فيها ، ولولا ذلك لما وجهوا نقدهم إلى موضع الاستيفاء والضمان من هذه الشريعة . لأنهم لم يسألوا أنفسهم قط فى أمر العقوبات التى يستعظمونها : هل هم على يقين إنها لم تكن فى حالة من الحالات رادعة ، أو

(١) المصدر نفسه ١٨٩

(٢) المصدر نفسه ٢٥٥

لازمة للتحذير والتخويف ؟ وهل أوجبتها الشريعة الإسلامية فى جميع الحالات ، ولم توجب معها عقوبة أخرى تصلح للأخذ بها فى زمانها وفى غير زمانها ؟ وهم خلقاء أن يترددوا فى النقد إذا كلفوا أنفسهم بعض هذه الأسئلة .. »[1] .

فى الفصل الرابع الأخلاق والآداب قال العقاد فيه : « التناسق ظاهرة عجيبة فى الإسلام ، يلمسها من تأمل فيه ، وألقى عليه فى مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعباداته ، وبين ما شرعه من المعاملات والحقوق ، وما يجده من الأخلاق والآداب ، هناك وحدة تامة أو بنية واحدة ، يجمعها ما يجمع البنية الحية من تجارب الوظائف وتناسق الجوارح والأعضاء .. »[2] . طرح العقاد هذه القضية لكى يتناول بعد ذلك — فى منهجه الدفاعى — عدة نقاط هامة ، فيقول : « يندر أن تقرأ فى كلام ناقد من الأجانب عن اللغة العربية شيئا من مآخذ التناقض فى الإسلام ، إلا بدا لك بعد قليل أنه مخطىء وأن مرد الخطأ عنده إلى جهل الإسلام أو جهل اللغة العربية . وبعضهم يجهلها وهو من المستشرقين ، لأنه يستظهر ألفاظها ، ولا يتذوقها ، ولا ينفذ إلى لبابها من وراء نصوص القواعد والتركيب . قرأنا لبعضهم أخيرا كتابا عن الشيطان ، يلم فيه بصفة إبليس فى الإسلام ، ويستغرب فيه — مع هذا الدين — أن يقول عن الله أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم ، مع أنه الدين الذى اشتهر بغاية التشدد فى إنكار الشرك ، وتكفير كل ساجد لغير الله .. »[3] ، ويرد العقاد بقوله : « ومرد الخطأ فيما بدر إلى الكاتب من التناقض بين التوحيد ، وبين السجود لآدم ، أنه فهم السجود بمعنى الصلاة دون غيرها من معانى الكلمة فى اللغة العربية . وفاته أن الكلمة عرفت فى اللغة العربية قبل أن يعرف العرب صلاة الإسلام ، ولم يفهموا منها أنها كلمة تنصرف إلى العبادة دون غيرها ، لأنهم يقولون : سجدت عينه ، أى أغضت ، وأسجد عينه ، أى غض منها ،

(٢) المصدر نفسه ٢٦٩
(٣) المصدر نفسه ٢٧٦
(١) المصدر نفسه ٢٧٦

وسجدت النخلة ، أى مالت ، وسجد أى غض رأسه بالتحية . وسجد لعظيم ، أى وقره وخشع بين يديه . ولا تناقض على معنى من هذه المعانى بين السجود لآدم وتوحيد الله . وإنما السجود هنا هو التعظيم المستفاد من القصة كلها ، وهو تعظيم الإنسان على غيره من المخلوقات .. »[1] . ونرى العقاد هنا — فى منهجه لدفاعى — يتجه إلى الرد اللغوى بجانب العقائدى . ويقول عارضا تهمة ثانية : « وبعضهم يرى أن الإسلام مناقض بطبيعته للعمل والسعى فى سبيل الحياة ، لأنه يفهم من الإسلام أنه التواكل وتسليم الأمر إلى الله بغير حاجة إلى الحول والقوة ، لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله .. »[2] ، ويرد العقاد بقوله : « وجهل هؤلاء بالفهم أكبر من جهلهم باللغة ، لأن الإسلام إلى الله وحده وتحريم الإسلام لغيره يأبى على المسلم أن يسلم للظلم ، أو يسلم للتحكم من الناس أو من صروف الحياة ، وينهاه أن يستسلم للخيبة وللقسمة الجائرة ، وأن يستسلم لكل قضاء لا يرضاه ، ويعلم أن الله لا يرضاه .. »[3] ويقول فى تهمة ثالثة : « وبعضهم يرى أن الإسلام والسلم نقيضان ، لأنه يفهم من كلمة أسلم أنها التسليم فى الحرب ، أو التسليم قبل الحرب خوفا من القتال ، فكل مسلم فهو خاضع للسيف هزيمة بعد الحرب ، أو خوفا من الحرب قبل إشهارها عليه .. »[4] . ويرد العقاد التهمة بقوله : « وهؤلاء المتحذلقون على اللغة التى يجهلونها ،يفوتهم أن كلمة « أسلم » فى ميدان الحرب هى نفسها مأخوذة من إعطاء اليد أو بسطها للمصافحة ، وأن المقصود بهذه الكلمة فى الدين أنها استقبال الله والاتجاه إليه ، فمن أسلم وجهه لله ، فقد استقبل طريقه ، وأعطاه وجهه ، ولم يتحول عنه إلى غيره . وكل المتدينين قبل الدعوة المحمدية موصوفون بأنهم مسلمون كما جاء فى سورة البقرة .. »[5] ، ثم يعلق تعليقا عاما على تلك الهجمات بقوله : « وأكثر ما اطلعنا عليه من النقائض

---

(١) المصدر نفسه ٢٧٦ — ٢٧٧

(٢) المصدر نفسه ٢٧٧

(٣) المصدر نفسه ٢٧٧

(٤) المصدر نفسه ٢٧٧

(٥) المصدر نفسه ٢٧٧

المزعومة ، فهو من قبيل هذه الأخطاء فى الفرقة بين الكلمات على معانيها المطلقة ، وبين هذه الألفاظ على معانيها التى قيدها الاصطلاح ، أو خصصتها لغة القرآن الكريم .. »(١) وهنا يرد العقاد كثيرا من الأخطاء التى ارتكبها مهاجمو الإسلام إلى الناحية اللغوية التى دخلت ضمن الاتجاه الدفاعى له . ويعتبر العقاد أن أقوى حجة يرد بها على أعداء الإسلام هو هذا التناسق بين عقائد الإسلام وأحكامه ، وهو ما أشار إليه فى أول هذا الفصل .

يتناول العقاد بعد ذلك مذهب « السوبرمان » للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه ويحلله ويناقشه ، ويقارن بينه وبين عدل الإسلام فى التسوية بين الأجناس ، وكيف تناول الإسلام « القوة » مغايرة تماما لفلسفة نيتشه ، ووصل من هذا كله إلى أن « الإسلام فى مجموعة بنية حية متسقة تصدر فى العقائد والأخلاق من ينبوع واحد .. »(٢) .

أنهى العقاد كتابه ــ كدأبه ــ بخاتمة قال فيها : « يتلقى الإسلام أشد الحملات فى العصر الحاضر من منكريه ، لأنهم يحترفون التبشير بدين آخر ، أو من منكريه ، لأنهم ينكرون جميع الأديان .. »(٣) ويقول : « أما الذين يحملون على الإسلام من غير المتدينين فهم جماعة الماديين الذين ينكرون الإسلام لأنهم ينكرون جميع الأديان ، ويرفضون وجود الله ، فيرفضون الإيمان بصدور شىء من الأشياء من عند الله . وآفة هؤلاء الماديين ضيق الأفق العقلى ، أو ضيق حظيرة النفس فى حالة التصديق والإنكار .. »(٤) .

بعد هذا العرض نقول أن منهج العقاد الفكرى الدفاعى يقوم على المحاور الأربعة الآتية :

---

(١) المصدر نفسه ٢٧٨
(٢) المصدر نفسه ٢٩٥
(٣) المصدر نفسه ٢٩٩
(٤) المصدر نفسه ٣٠١

أولا :

وضع القضايا العقائدية التى ناقشها فى أكثر من كتاب فى صورة حقائق تلائم الحياة والنفس البشرية ، بحيث حددها وجعلها ـــ أى العقائد ـــ الحقائق فى صورة ردود مقنعة لمن أراد التصدى للإسلام من أعدائه . وهنا نجد الفرق بين عرض العقاد لتلك العقائد فى كتبه السابقة أمثال الفلسفة القرآنية ، أى فى مجال التفسير والبيان ، وبين عرضه لها هنا فى مجال الدفاع والمقارنة . بحيث يضيف العقاد إلى قوة العقيدة التفسيرية قوة دفاعية . وتربط القوتان معا فى محور واحد .

ثانيا :

إن العقائد الإسلامية تقع حلقة وسطى بين العقائد السابقة وبين التطلع إلى المستقبل والديمومة فى الحياة . فالعرض العقادى للعقائد على الصورة السابقة حسب المحور السابق يجعل هذه العقائد إما مكملة لما سبقها فى أديان أخرى ، وإما مسددة لنقص فى تلك الأديان . وبالتالى أورد العقاد نصوصا من الأسفار والإصحاحات ونحوها مقارنا ومبينا تلك الناحية ، كذلك أورد أراء الباحثين المعاصرين ونظرياتهم فى تطور الإنسان والحياة ومذاهب النفس البشرية ، وجعل الإسلام سابقا لهذا كله أو أعمق من هذا كله فى التطلع إلى آفاق المستقبل . وهذا المحور يكمل السابق وينضم إليه فى نفس الاتجاه الدفاعى .

ثالثا :

إن المهاجمين الذين يطعنون فى الإسلام متظاهرين بأنهم درسوه لم يصلوا إلى المستوى الذى يظنون أنفسهم عليه ، فهم إما جاهلون باللغة العربية ، وإما يدفعهم الحقد الأعمى فيقعون فى الأخطاء ، وإما لم يدرسوا العقيدة الإسلامية بالدرجة الكافية ومن جميع جوانبها . وبالتالى فآراؤهم عرضة للدحض والرد .

رابعا :

أن النص القرآنى هو محور العلاقة بين الهجوم والدفاع وبالتالى كثر استشهاد

العقاد بالقرآن فى هذا الكتاب . لأنه أراد أن يكون تفسيره وخاصة من الناحية الدفاعية هنا مؤيدا بالنص القرآنى ومستمدا منه . وخاصة أنه يحدد نقاط الهجوم والدفاع فى شكل قضايا عامة ولا يرد على كل مهاجم على حدة .

من هذا العرض نجد أن الكتاب يعتبر ـــ فى رأيى ـــ وثيقة دفاعية هامة يستطيع من أراد رد أقوال السوء أن يتخذها وسيلة إلى ذلك ، بالإضافة إلى أن هذا الكتاب يوضح جانبا هاما من جوانب منهج العقاد فى أدبه الإسلامى ربما غفل عنه الكثيرون .

٢ ـــ ما يقال عن الإسلام

الكتاب الثانى فى هذا الإتجاه العقائدى الدفاعى هو : ما يقال عن الإسلام ، وهو يشكل خطوة هامة فى الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه ، وكما يبدو من عنوانه أن العقاد يركز هنا على « أقوال » غير المسلمين عن الإسلام .. وبالتالى نجد الكتاب يختلف فى منهجه التقسيمى التابع من منهجه الفكرى بعامة عن سابقه بالآتى :

أولا :

فى عنوان الكتاب السابق نجد الثنائية المتضادة حقائق وأباطل والتى تعد من خصائص منهج العقاد الفكرى . وتدلنا على أن الكتاب يحدد « حقائق » ويرد مباشرة على « أباطيل » على نحو ما بينا ، أما هذا الكتاب فعنوانه يخلو من هذه الثنائية أو هذا التضاد ، ويبين أنه يعرض لما « يقال عن الإسلام » ، وبالتالى نستنتج الآتى :

١ ـــ أن التركيز هنا على ما يقال أولا من حيث مصدره واتجاهه وفحواه ثم يأتى الرد فى المرتبة الثانية .

٢ ـــ ليس ما يقال عن الإسلام كله « أباطيل » فربما يكون هناك من الكتاب النقاد معتدلون غير متحيزين ضد الإسلام ، وبالتالى لا يعتبر ما يقولونه عن الإسلام كله أباطيل . وبالتالى خفف العنوان من لهجة العنف

والحماس فى حقائق وأباطيل وأحل محلها لهجة البحث المعرف الهادىء لما يقال .

ثانيا :

بناء على ما سبق لم يقسم العقاد كتابه الأخير فصولا محددة تحمل بيانا لعقائد ، بل جعله فصولا متتابعة فى شكل مقالات مثل تقسيم كتاب « الفلسفة القرآنية » وإن اختلف الهدف والموضوع . وجعل العقاد لكل « مقال » عنوانا مستقلا يتناول موضوع المقال . وأغلب الظن أن الكتاب كان مقالات نشرت منفصلة ثم جمعت ، وأيا ما يكن فما أمامنا الآن هو كتاب كامل محدد بعنوان شامل يندرج ضمن كتب العقاد الدينية .

ثالثا :

بناء على منهج العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام » وما بيناه فيه ، لم يورد العقاد أسماء المهاجمين للإسلام بالتحديد وأسماء كتبهم إلا قليلا ، وجعل هناك إتجاها هجوميا محددا فى موضع معين قد يتفق فيه أكثر من مهاجم ، ورد عليه بحقائق الإسلام على نحو ما شرحنا . أما هنا فى كتاب ما يقال عن الإسلام فتناول كل مؤلف على حدة باسمه واسم كتابه ، والنقاط التى ناقشه فيها وهكذا . وبالتالى اتجه إلى التفصيل والتفريع هنا ، أكثر من التعميم والإجمال هناك . وهذا التفصيل والتفريع وخاصة عن المؤلف وآرائه يرضى القارىء أكثر لاشك .

رابعا :

بناء على هذا لا نستطيع تحديد موضوعات عامة أو محددة للكتاب أو فصولا يندرج تحتها موضوعات متفرعة أو نحو ذلك . ونجد أن كل موضوع يتناوله مقال قد لا يكون له علاقة بما سبقه أو بما بعده ، وبالتالى فقد الكتاب وحدة التقسيم الموضوعى ، وإن لم يفقد وحدة الهدف أو الاتجاه العام .

خامسا :

إن الكتاب يحوى أيضا قضايا إسلامية عامة يثيرها أعداء الإسلام أو قضايا تحتاج إلى بيان وإظهار ونحو ذلك مما لا يختص بمؤلف معين أو كتاب محدد ، وقد يتناول آراء لكتاب وردت فى أكثر من كتاب أو مرجع . وهو هنا — فى هذا النوع من المقالات — يشبه ما فعله فى كتابه حقائق الإسلام ، ولكن بدرجة أقل وأكثر تحديدا مما يلائم « المقال » .

سادسا :

بناء على ما سبق أيضا نجد أن استشهاد العقاد بالآيات القرآنية فى الكتاب الأخير لا يكاد يوجد ، فى حين أن تلك الاستشهادات تكثر فى كتابه السابق وهذا يرجع بطبيعة الحال لاختلاف المنهجين على نحو ما بينا .

والكتاب على هذا النحو مكون من أربعين مقالا تعالج مختلف المؤلفات التى تناولت الإسلام من قبل المستشرقين والباحثين فى أنحاء العالم . ويبدأ الكتاب بكلمة تقديم أشار فيها العقاد إلى بداية ظهور الكتابة فى الأمم والعقائد ، وكثرة الكتابة عن الإسلام والأمم الإسلامية ، ثم أظهر تفاوت الكتاب عن الإسلام من حيث النية والدراية « والمعرفة » ، وبين أن منهم المبشرين المتعصبين ، ومنهم أصحاب السياسة والنفاق ، ومنهم القاصرين مع توفر سلامة النية ونحو ذلك من « أنواع » الكتاب عن الإسلام ، ثم قال : « ومن حقنا ، بل من واجبنا أن نعرف ما يقال عنا ، وأن نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه ، لأننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر إليها الغرباء عنا ، وعرفنا مبلغ الصدق والفهم فيما يصفوننا به عن هوى وجهالة ، وعن دراية وحسن نية .. »[1] . فبين العقاد الدافع لتأليف الكتاب ، ثم يقول محددا منهجه بعامة : « فى الصفحات التالية ، مجموعة من المقالات عن الكتب التى ألفها كتاب الغرب من شتى وجهات النظر التى أشرنا إليها ، أو من أكثرها شيوعا واعتبارا فى العصر الحديث ، لخصناها وعقبنا عليها ، وناقشنا منها ما يحتاج إلى مناقشة .. »[2] فأشار إلى أن مؤلفيها من الغرب ، وأن

(١) ما يقال عن الإسلام ٥

(٢) المصدر نفسه ٥

الكتاب موضوع المقال من أكثر الكتب شهرة ، أو من الكتب المتداولة المعروفة وقام العقاد بتلخيص الكتاب ، ثم أتبع ذلك بالتعقيب أو المناقشة .. ويقول محددا الهدف العام ، وأنه يريد بهذا العرض « المزيد من التعريف بالإسلام ، والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه ، ولعلها تغنى ، ولو بعض الغنى فى سداد هذه الطلبة المتجددة من إخواننا القراء فى الأمم الإسلامية .. »[1] . ونرى العقاد يستمر فى بيان منهجه فى المقال التالى بعنوان « ماذا يقولون ، بل كيف يقولون ؟ » مبينا أنه يستخرج من أقوال هؤلاء الباحثين « نتجة » عامة كالميزان لأراء القوم ، « نفهم منه كيف يقولون قبل أن نعرض لما يقال أو لموضوع المقال ، وفيما نقدم من الملاحظات على الكتب التى نعرض لها مادة كافية لتحرير الميزان ، والانتفاع به فى تقويم الآراء وأصحاب الآراء كلما وقفنا على مؤلف جديد فيما يتحدثون به عن الدين الإسلامى ، أو عن الأمم الإسلامية .. »[2] . أى أراد العقاد وضع مقياس عام للمنهج ، وبالتالى اعتبر هذا المقال من ضمن مقدمة الكتاب ، وقد فصل فيه القول عن اتجاهات الكاتبين عن الإسلام وطوائفهم بعد أن أشار إليهم فى بداية المقدمة السابقة . وقد أراد بمقياسه ذاك وعرضه لتلك الطوائف والاتجاهات أن يصل إلى تميز المخلصين منهم من غير المخلصين ، يقول : « والنتيجة التى نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الإسلام والمسلمين فى عصرنا — هى تمييز المخلصين منهم وغير المخلصين ، وحصر البواعث التى تدفع غير المخلصين إلى الجهل بالحقيقة ، وإخفائها إذا عرفوها .. »[3] وهنا أراد العقاد لمنهجه الدفاعى أن يكون منهجا مميزا ومقياسا موضوعيا .. وليس مجرد دفاع أورد ، وبالتالى يصلح هذا المنهج لأن يستخدم فى أى بحث أريد به تمحيص الكتب التى تتناول الإسلام بعامة .

ولو تتبعنا مقالاته تلك كلها لوجدنا الآتى بالإضافة إلى ما قاله العقاد :

أولا :

أن منها ما يبدأ بإسم الكتاب موضوع المقال ثم التعريف بالمؤلف فى إيجاز ثم

---

(١) المصدر نفسه ٥

(٢) المصدر نفسه ٦

(٣) المصدر نفسه ٨

مناقشته فيما أورده ، ورده عليه مثل مقال « الإسلام والعصر الحديث »[1] .

ثانيا :

منها ما يتناول موضوعا عاما مستندا من كتاب محدد فى هذا الموضوع أو أكثر ويعرض العقاد الموضوع بعامة ثم يستشهد بكتاب أو أكثر على ذلك ويناقشه مثل مقال « أديان الدعوة »[2] .

ثالثا :

منها ما يتناول موضوعا عاما غير مستمد من كتاب محدد ، هذا الموضوع يرى فيه العقاد قضية دينية عقائدية تحتاج إلى بيان وعرض ، وقد يتخلل هذا البيان والعرض آراء الكتاب وعلماء يناقشهم العقاد ، ولكن ليست كتبهم موضوع المقال . وقد لا يشير العقاد إلى كتب بعينها ، بل يحدد فحسب « ما يقال » عن هذا الموضوع وكيف يرد عليه مثل مقال « مسألة الرق فى الإسلام »[3] .

رابعا :

من هذه الموضوعات ما هو رد على سؤال وجه إلى العقاد فى موضوع معين ويرد العقاد عليه باقتراح عنوان لهذا الموضوع ، مثل مقال « الصلاة والعلم »[4] .

من هذا نرى أن منهج المقالات لم يكن واحدا ، وأن منها مالا يتناول كتب الباحثين خاصة ، ومنها ما يتناول كتب الباحثين الشرقيين أو مقالات لهم[5] بالإضافة إلى الغربيين .

---

(١) المصدر نفسه ١٩ ، وأنظر ٦٢ ، ٧٦ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ٢٢٤ ....

(٢) المصدر نفسه ٣١ ، وأنظر ٤٠ ، ٥٠ ، ٨٤ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣٤٨ ....

(٣) المصدر نفسه ١٨٨ وأنظر ١٩٥ ، ٢٧٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٠ ....

(٤) المصدر نفسه ٢٧١ ، وأنظر ٢٨٧

(٥) المصدر نفسه ١١٣ ، ٢٣٥

ويتميز منهج العقاد الدفاعى فى التناول والتعليق والمناقشة فى هذه المقالات بالآتى :

أولا :

عند عرض آراء الكتاب موضوع المقال أما أن ينقل العقاد منه نصوصا مترجمة مباشرة كما فى مقال : « الإسلام والعصر الحديث » للدكتورة ليشتنستادر(١) ، وأما يلخص النقاط والأفكار موضوع المناقشة ويعرضها بأسلوبه هو ، كما فى مقال « الإسلام والثقافة الأفريقية »(٢) . ثم يرد عليها بعد ذلك .

ثانيا :

أن الرد قد يكون تصحيحا لإحصائية أو تصحيحا للخطأ الناجم عن جهل المؤلف باللغة أو الدين أو عدم التعمق فى الإسلام ، أو عدم فهم النصوص القرآنية وتفسيرها فهما صحيحا . وبالتالى يحدد العقاد نقطة الضعف فى الكتاب موضوع المقال ثم يردعليه، فنراه يقول مثلا فى الرد على الباحث مبدى فيشر فى كتابه « الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى » بعد أن عرض آراءه : « إنه ينساق إلى تلك الأخطاء المتواترة فى كلامه على المسيحية ، وعلى الإسلام بغير تفرقة بين دياناته التى يؤمن بها ، والديانة التى يفهمها من مصادر الغربية ، أو مصادرها الشرقية الميسرة للغربيين . يقول بعد الإشارة إلى بعض المشابهات بين آيات القرآن وآيات الزبور على حسب فهمه : « والواقع أن اليهودية وفرعيها المنبثقين منها : — المسيحية والإسلام — مشتركات فى كثير من الأمور ، وإن كان معظم التشابه فى العبادة دون الجوهر والمعنى » . هذا الخطأ المتواتر هو الذى يعنينا فى هذا المقال من موضوعات ذلك الكتاب ، لأنه واجب التصحيح ، وسهل التصحيح مع إطباقه على أذهان المؤرخين الغربيين ذلك الإطباق الذى يوشك أن يشل تلك الأذهان عن الحركة المهيأة لها فى

(١) المصدر نفسه ١٩

(٢) المصدر نفسه ٣١

غير هذا الموضع .. »[1] ثم شرع العقاد فى الرد وتصحيح الخطأ والمناقشة .

ثالثا :

انطلاقا من الميزان الذى حدده العقاد فى مقدمته للكتاب لبيان الكتاب المخلصين من غير المخلصين كان كثيرا ما يشير إلى « نزاهة الكاتب » وعدم تحيزه أحيانا ، فنراه يقول عن مؤلف كتاب « المسلمون السود فى أمريكا » وهو أريك لنكولن بعد أن عرض لبعض آرائه فى الكتاب وناقشها : « ويرى القارىء أن حديث المؤلف عن الأقليات حديث يغلب عليه الصدق والإنصاف ، ومنه حديثه عن المسلمين السود ، وهم أقلية دينية ، بين أقلية قومية ، من السود المتنصرين أو الوثنيين .. »[2] . وعلى الجانب الآخر ، جانب عدم النزاهة أو عدم الإخلاص نجد العقاد يهاجم الكاتب فى عنف أحيانا ، فنراه فى مقال « المبشرون نقاد القرآن » يتناول حديث الدكتور صمويل زويمر عن عسل النحل ، أو الشهد فى القرآن ، وأنه هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله فى كتابه ، ويقول العقاد معلقا : « إن الدجل المتعمد ظاهر فى قول هذا العلامة الغبى إن القرآن حصر الطب كله فى دواء واحد هو الشهد ، فإن المعنى الذى تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة أن الشهد شفاء ، ولم تقل أنه كل الشفاء ، ولا أنه شفاء من جميع الأمراض ، فإن وصف الشهد بهذه الصفة ، لا يزيد على دواء من الأدوية ، كما يوصف أى عقار من العقاقير فى الصيدليات . ومثل هذا الادعاء التبشيرى لا يعتسف اعتسافا على هذه الصورة إلا للافتراء المتعمد طمسا للحقيقة مع سوء النية .. »[3] .

رابعا :

لا يكتفى العقاد فى رده بالحجة المقنعة مستخدما أسلوبه ومنهجه المعروف فيه ، بل يستخدم المعلومات العلمية بجانب الدينية وحججها ، كما فعل فى بيان أحدث التحليلات البكتريولوجية للعسل ومكوناته ردا على آراء زويمر فى

(١) المصدر نفسه ٦٥
(٢) المصدر نفسه ١٢٩
(٣) المصدر نفسه ٢٠٩

مقاله السابق . وكما تناول علوم : الكيمياء والاقتصاد والنفس فى مقاله « علم النفس والدين الإسلامى .. »[1] . وغير ذلك من علوم فى مقاله : « العلوم الطبيعية ومسائل العقيدة »[2] ، ومقاله : « سذاجة المفكرين .. »[3] . ولكن العقاد فى استشهاداته العلمية ، لم يرد أن يربط النص القرآنى بنظرية علمية — كما يحلو لكثير من الكتاب الإسلاميين أن يفعلوا — وقد هاجم العقاد هذا الاتجاه فى أكثر من كتاب كما رأينا — ولكن أراد أن يبين مدى صدق القرآن ومطابقته للحياة بما فيها من تطور وأن المباحث القرآنية لا تتعارض مع المباحث العلمية الحديثة ، أو بمعنى أدق لا يمنع منها ، بل إن هذا التطور يثبت العقيدة ويقويها ، يقول فى المقال السابق مناقشا الماديين الملحدين : « إن السذاجة عند جماعة المفكرين والملحدين أشد وأظهر من السذاجة عند المؤمنين والمستعدين للإيمان ، لأنهم يسرعون إلى الإنكار لغير سبب ، أو لسبب واهن لا يكفى لتكوين الرأى ، ولا يبلغ من القوة والإقناع مبلغ رأى واحد من جملة الآراء التى تدعو إلى الإيمان والتصديق بالدين . ولا ريب أن إنكار الغيب المجهول قضية تحتاج إلى مئات البراهين والشواهد ، حيث لا يحتاج الإيمان بما وراء الظواهر إلى أكثر من براهين الواقع المشاهد بالتجربة اليومية . وذلك أن الظواهر تخفى وراءها من أسرار الوجود ما هو أعمق وأبعد أمدا من كل ظاهرة تتكشف للعقول ، ولا تزال قابلة للمزيد من التكشف كلما تقدم الإنسان فى وسائل الإظهار والتدقيق . وآخر الكشوف العلمية أو الصناعية هو بذاته آخر الأدلة على سذاجة المفكرين وجمهرة الماديين الملحدين . فقد خيل إليهم أن العقائد الدينية مهددة فى هذا العصر بما يكشفه العلماء من وسائل ارتياد الفضاء ، ووسائل تحضير المادة الحية فى معامل الكيمياء . ولو تمهلوا قليلا لعملوا يقينا أن كشوف العلم العصرية أدعى إلى تثبيت تلك العقائد من كل كشف علمى عرفه الناس قبل العصر الحديث .. »[4] وبالتالى توصل العقاد إلى

(١) المصدر نفسه ٣١٠
(٢) المصدر نفسه ٣٣٢
(٣) المصدر نفسه ٣٤٠
(٤) المصدر نفسه ٣٤٠ — ٣٤١

الربط بين مقولة العقيدة ـــ الفكر وبين العقيدة ـــ العلم ، أو بين مقولة الإيمان ـــ العقل وبين الإيمان ـــ العلم . فاستخدام العقل والتفكير الذى يحض عليه الإسلام جعل المؤمن يساير ويماشى التطورات العلمية الحديثة التى قوت من عقيدته وإيمانه .

خامسا :

لم يخصص العقاد موضوعا دفاعيا محددا ، بل تناول موضوعات شتى ، بدءا من الذات الإلهية ونبوة محمد ﷺ وشخصه الكريم ، ثم الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمسلمين فى العالم ، ثم العقائد والسلوكيات فى الإسلام وتناول الكثير من الشخصيات الإسلامية ، ونحو ذلك مما يصعب حصره ، ومن الطبيعى أن الموضوع يفرض عليه نتيجة الكتاب موضوع البحث والمناقشة ، لكن العقاد فى رده الدفاعى قد يتطرق إلى أكثر من موضوع آخر . ولكنا نجد أن موضوع الإسلام فى أفريقيا حظى بأهمية كبيرة فى هذا الكتاب .

بعد هذا العرض للكتاب نجد أن منهجه الفكرى الدفاعى يقوم على المحاور الآتية :

أولا :

وضع آراء الباحثين فى الإسلام موضع الشك والشبهة أولا ، ثم إظهار مواطن ذلك الشك وتلك الشبهة ، وأنها قضاء حقائق الأمور وطبيعة الأشياء ثانيا ، ثم إظهار ما خلصت نيته منها ثالثا . والوصول من ذلك كله إلى إضافة مزيد من الثبوت للعقائد الإسلامية ، فجعل من الهجوم على الإسلام قوة تضاف إلى قوة العقيدة . أى أن الهجوم على الإسلام أكسبه قوة فوق قوته ودعما .

ثانيا :

« الإسلام ـــ المعاصرة ـــ أى أن الإسلام أولا ، دين العصر ، بل كل عصر بما فيه من عقائد تطورية لينة قابلة لمجابهة تغير الزمن . ثانيا : أن انتشار الإسلام فى أقطار الأرض دليل على مدى الملائمة بين عقائده والنفوس البشرية

على اختلاف أنواعها وأماكنها فى العصر الحاضر . ثالثا : إظهار مدى ارتباط السياسة المعاصرة واتجاهاتها فى الشرق بالإسلام وأن العقيدة لابد أن ترتبط بالحكم على نحو ما . وهنا ربط هذا المحور بين العقيدة والزمان والمكان ونظام الحياة .

ثالثا :

طالما أن الإسلام ينتشر فى الأرض وهو دين الله الحق ، لابد وأن يتعرض دوما للهجوم . ولابد أن نجد دوما الطاعنين والحاسدين .. إلخ وبالتالى لابد للمفكر الإسلامى أن يتسلح ضد هذا ، فلا تكفيه ثقافته الإسلامية ولا إيمانه ولا اهتمامه بقضايا الدين ، بل عليه أن يعرف كيف يرد ؟ ومتى يرد ؟ ويطلع على أراء أعدائه وأعداء الدين فى كفاتهم التى يكتبون بها ولا يتجاهلها أو يغفل عنها ، وأن يعرف مواطن الضعف فيها ليكون رده مفحما قويا .. وبالتالى جعل العقاد المحور هذا من محاور كتابة يدور حوله على هذا النحو :

قدرة عقلية + ثقافة واطلاع ← قراءة كتب المهاجمين وتحليلها ← معرفة نقاط الضعف ← الرد والتفنيد والدحض .

بالإضافة إلى هذين الكتابين استكمل العقاد ــ ضمن منهجه الدفاعى ــ الرد على المذاهب المعاصرة وخاصة الشيوعية عندما هاجمت العقيدة الإسلامية ، وتناول ذلك فى كتابين هامين هما : الشيوعية والإنسانية وأفيون الشعوب ــ المذاهب الهدامة . ونظرا لخروجهما عن طبيعة البحث ومنهجه الذى نحن بصدده ، نشير فقط إلى « الجزء الإسلامى » فيهما لما له من أهمية فى إستكمال المنهج الدفاعى الدينى .

فى كتاب الشيوعية والإنسانية عقد العقاد بعنوان « الشيوعية والإسلام » بين فيه مدى العداء الذى تكنه العقيدة الماركسية للإسلام كما يرى ، وأخذ يفند التهم التى هاجم الشيوعيون الإسلام من خلالها ، منها مثلا إدعاؤهم أن الدين يخدر الشعوب ، ويروضها على الفقر والمسكنة ــ كما يقول : « ويلهيها

بالآخرة عن نعيم الدنيا ، ليستأثر به سادة المجتمع ويغتصبوا منه علانية ، ويسرقوا منه خلسة ما طاب لهم أن يغتصبوه أو يسرقوه .. »[1] ، فيرد بقوله : « فالإسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ، ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، ويعيد عليه هذا الأمر فى آيات متعددة من القرآن الكريم .. »[2] .

كذلك عند ما ألف العقاد كتابه « أفيون الشعوب ــ المذاهب الهدامة » عقد فيه فصلا بنفس عنوان الفصل الذى أشرنا إليه فى الكتاب السابق ، فتحت عنوان « الشيوعية والإسلام » يقول : « أما الإسلام فهو نظام إجتماعى له منهجه فى علاج المسائل التى تتصدى لها الشيوعية ، وهو يواجه مشكلة الفقر . بحلوله المتعددة ، ولا يقتصر مواجهتها على فرض الزكاة لمستحقيها ، كما يسبق إلى الظن لأول وهلة ، إذ هو ينكر الإسراف والترف والإحتكار ، ويأبى أن تكون الأموال « دولة بين الأغنياء » ، ولا يصدق عليه قولهم أنه أفيون الشعوب لأنه يأمر المسلم ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، ويحثه على دفع المظالم ومنع الشرور ، ويعلم المسلم أن يقدس الحرية ، ويثور على المذلة والاستعباد ، فلا يتسنى للحاكم الأجنبى أن يخضعه لغير معتقده ، أو يسومه للهوان فى أمور الدنيا والدين .. »[3] .

وعلى هذا الأساس الدفاعى يمكن ضم آراء العقاد هنا بما تحوى من خصائص إلى آرائه الدفاعية الأخرى السابقة .

---

(١) الشيوعية والإنسانية ٢٥٤

(٢) المصدر نفسه ٢٥٤

(٣) أفيون الشعوب ــ المذاهب الهدامة ٨١ ــ ٨٢

مصادر البحث

١ ــ الله ــ كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ــ الطبعة الثالثة ١٩٦٠ م ــ دار المعارف ــ القاهرة .

٢ ــ أبو الأنبياء ــ الخليل إبراهيم ــ كتاب اليوم ــ أغسطس ١٩٥٣ ــ القاهرة .

٣ ــ إبليس ــ بحث فى تاريخ الخير والشر وتمييز الانسان بينهما من مطلع التاريخ إلى اليوم ــ كتاب اليوم ــ القاهرة .

٤ ــ عبقرية المسيح ــ كتاب اليوم ــ يناير ١٩٥٣ ــ القاهرة .

٥ ــ مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية ــ كتاب الهلال ــ العدد ٥٠ مايو ١٩٥٥ ــ القاهرة .

٦ ــ الفلسفة القرآنية ــ لجنة البيان العربى ــ ١٩٤٧ ــ القاهرة .

٧ ــ الإنسان فى القرآن الكريم ــ كتاب الهلال ــ العدد ١٢٦ ــ سبتمبر ١٩٦١ ــ القاهرة .

٨ ــ المرأة فى القرآن ــ دار الهلال ــ القاهرة .

٩ ــ التفكير فريضة إسلامية ــ الطبعة الأولى بإشراف المؤتمر الإسلامى ــ دار القلم ــ القاهرة .

١٠ ــ الديمقراطية فى الإسلام ــ ١٩٦٤ ــ دار المعارف ــ القاهرة .

١١ ــ حقائق الإسلام الإسلام وأباطيل خصومه ــ الطبعة الأولى ــ المؤتمر الإسلامى ١٩٥٧ ــ القاهرة .

١٢ ــ ما يقال عن الإسلام ــ مكتبة دار العروبة ــ القاهرة .

١٣ ــ الشيوعية والإنسانية ــ الطبعة الأولى ١٩٥٦ ــ دار الفتوح ــ القاهرة .

١٤ ــ أفيون الشعوب ــ المذاهب الهدامة ــ مكتبة الأنجلو ــ القاهرة .